مجتمع المعرفة العبَّاسي وتطور الترجمة في القرن الثالث الهجري (من خلال رسالة حنين بن إسحاق إلى علي بن يحيى المنجم)

أحمد علي حيدر السري

أستاذ، جامعة صنعاء، الجمهورية اليمنية

الملخّص

تتناول هذه الدراسة مجتمع المعرفة العباسي في القرن الثالث الهجري، في ضوء رسالة (كتيب) كتبها عبقري الترجمة حنين بن إسحاق (**194 - 260**هـ / **808-873**م)، إلى صديقه علي بن يحيى المنجم ، أحد الداعمين الرئيسين لنشاط الترجمة يومئذ. الرسالة (الكتيب) تظهر أنشطة مجتمع المعرفة العباسي المتعلق بالترجمة من الإغريقية إلى اللغتين العربية والسريانية، كما تظهر تفاصيل الحراك العلمي وأبرز ممثليه وعلاقة بيت الحكمة بذلك الحراك. الرسالة تبرز كيف تطورت الترجمة في سياق حاجة المجتمع العباسي إلى معارف علمية قديمة، كما تبرز حاجة مجتمع المعرفة إلى مؤلفات طبية بالعربية، وكيف ظهرت المختصرات والجوامع لأمهات الكتب التي تم تداولها ودراستها. كما تبين العلاقة بين مناهج تدريس الطب في مدرسة الإسكندرية العتيقة وطلبة الطب في بغداد في القرن الثالث الهجري. ومع أن الرسالة تركز على ما ترجمه حنين بن إسحاق من كتب جالينوس في الطب، فإن التفاصيل الكثيرة التي حوتها هذه الرسالة تلقي ضوءاً كاشفاً على طبيعة نشاط مجتمع المعرفة العباسي يومئذ في كل فروع المعرفة، وهو ما يستحق أن يعرف.

• استهلال

كتب حُنَيْن بن إسحاق العبادي إلى صديقه علي بن يحيى بن المُنَجِّم[1] رسالة (كُتيباً) عنوانها: **"رسالة حنين بن إسحاق إلى علي بن يحيى في ذكر ما تُرجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم"**. والرسالة بحجم كتيب متوسط الحجم عدد صفحاته المنشورة ٥٣ صفحة، وفيها ثبتٌ لما تُرجم من كتب جالينوس حتى سنة 260 /873، سنة وفاة حنين بن إسحاق.

ظلت هذه الرسالة مجهولة في الأوساط العلمية حتى عثر عليها المستشرق الألماني بيرجشتريسر[2] (Bergsträßer) في مكتبة آيا صوفيا بتركيا عند نهاية الحرب العالمية الأولى، وقد نشرها محققة ومترجمة عام 1925[3]، فأسهمت في تصويب معلومات مؤرخي تاريخ العلم حول ما ترجم من كتب جالينوس إلى السريانية والعربية. ولأن بيرجشتريسر اكتفى بتحقيق الرسالة ونشرها مع ترجمة ألمانية دون الخوض في محتواها، فقد التفت إليها من معاصري بيرجشتريسر المستشرق الألماني ماكس مايرهوف (Max Meyerhof)، فألقى من خلالها مزيداً من الضوء على حنين بن إسحاق وزمنه[4]. كما التفت إليها المستشرق الألماني شتروماير (Strohmaier) فتتبع ترجمات جالينوس إلى السريانية والعربية، وصلة مدرسة الإسكندرية بمدرسة بغداد. وقد اقْتُبِس مايرهوف وشتروماير في كثير من المقالات والأبحاث ذات الصلة بأثر التراث اليوناني في الثقافة العربية[5]. أما في الأوساط العلمية العربية، فلم تلق هذه الرسالة – بحسب علمي – حتى الآن من الذيوع ما تستحقه، وهو ما يستدركه هذا البحث؛ بُغية تقديم تعريفٍ وافٍ بهذه الرسالة ومحتواها.

وبما أن البحث يخوض في محتوى رسالة تهم تاريخ العلم، وفيها نصوص تتضمن إفادات تاريخية قصداً أو عفواً، فإن المنهج الذي يقترح نفسه في هذا السياق هو "منهج تحليل النص في أفق تاريخي متصل" يختلط فيه السياسي بالاجتماعي بالعلمي. هذا المنهج هو الذي يمكننا من فهم النصوص وتحليلها لاستخراج دلالاتها التاريخية، ليس فقط في سياق القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، زمن تَشَكُّل النص، بل بإشراك عصر الترجمة كُله أيضاً، وهو الزمن

الواقع بين القرنين الثاني والرابع الهجريين/ الثامن والعاشر الميلاديين (2-4هـ/ 8-10م). وفيه شَكَّل القرن الثالث الهجري، زمن حنين بن إسحاق ذروته وأوجه.

وقد جرت الأقلام العلمية على تسميته "عصر الترجمة"، أو "حركة الترجمة"؛ لأنه الزمن الذي تم فيه نقل التراث العلمي من الفارسية والهندية والإغريقية إلى اللغة العربية ضمن مقدمات تاريخية كبرى[6]. وقد تم تدارس تلك العلوم وتصويب ما أمكن منها، فمزجها العقل الإسلامي جميعاً وطورها، وأخرجها بعد ذلك تراثاً حضارياً إسلامياً ببعد إنساني مشهود.

والرسالة باحتوائها على تفاصيل كثيرة كاشفة، تسهم في تصويب المعلومات عن عصر الترجمة وتطوره، وتعمق تصوراتنا عن مجتمع المعرفة العبَّاسي في بغداد وقتئذ، كما سيتضح من خلال محاور هذا البحث وخلاصاته، وهي تفاصيل تنفرد بها هذه الرسالة القيمة لتؤلف في مجموعها صورة حية لأكثر فترات عصر الترجمة حضوراً في تاريخ العلم، وهي فترة حنين بن إسحاق العبادي (194-260هـ/808-873م)، قطب عصر الترجمة الأكبر وشيخها الأول غير منازع.

• نُسَخ الرسالة وزمنها

من المفيد قبل الخوض في محتويات الرسالة، إيضاح مسألة تتعلق بِنُسَخِها وزمن كتابتها، وهو أمر بَـيَّـنَـه المستشرق بيرجشتريسر في كتابيه الصادرين عام 1925 وعام 1932. وهما كتاب : "حنين بن إسحاق: عن ترجمات كتب جالينوس إلى العربية والسريانية"، Hunain Ibn Ishaq: Über die Syrischen und Arabischen Galen-übersetzungen صدر عام 1925، وكتاب "مصادر جديدة حول ترجمات حنين بن إسحاق لكتب جالينوس" Neue Materialien zu Hunain Ibn Ishaq's Galen-Bibliographie صدر عام 1932.

وفي هذين الكتابين يقدم بيرجشتريسر إسهامه البارز في مشوار معرفة ما تُرجِم بالضبط من كتب اليونان، وذلك بنشره لأول مرة لهذه الرسالة. وقد وضَّح بيرجشتريسر قيمة هذه الرسالة بالإشارة إلى أنها تكشف قدراً كبيراً من جملة العلم الإغريقي الذي انتقل

إلى عالم الإسلام عبر السريانية والعربية[7]، ليس ما يخص جالينوس فقط بل قدراً من كتابات أبقراط أيضاً، من خلال ترجمة شروح جالينوس لها. كما تكشف، ما يسميه رشدي راشد، "الثقافة العلمية" للمدينة الإسلامية ووظيفة العلم فيها ودور المجتمع الإسلامي في تنمية العلم وتطوره[8].

وقد عثر بيرجشتريسر على هذه الرسالة في مكتبة آياصوفيا في مدينة إسطنبول التركية عام 1918 تحت رقم (3631)، واستنسخ لنفسه نسخة عما قال حينها إنها النسخة الوحيدة، وبسبب أحوال الشهور الأخيرة من الحرب العالمية الأولى واضطراره إلى العودة إلى ألمانيا، لم يتمكن من مقابلة نُسْخَتِه هذه بأي نُسَخٍ أخرى أو أصول. ووصف بيرجشتريسر هذا المخطوط من حيث عدد الأوراق وحجمها ولونها وخطها، وذكر أن المخطوطة ليست مؤرخة؛ ورجح انحدارها من القرن السابع – الثامن الهجري، ثم استعرض خلاصة مقارناته النصية بين هذه الرسالة وما ورد عند ابن أبي أصيبعة (600 - 668 هـ/ 1202 - 1270م) والقفطي (568 - 646هـ/ 1172 - 1248م) وابن النديم (ت 438هـ/ 1047م). وأشار إلى أسماء الكتب الواردة عندهم، وما أخذوا منها وما تركوا، ولاسيما ابن أبي أصيبعة. وخلص بيرجشتريسر من مقارناته إلى أن هناك تطابقاً بين نسخته وكثير من منقولات ابن أبي أصيبعة والقفطي وابن النديم؛ مما يعني أصلية هذه الرسالة وأنها كانت في متناول المؤلفين يأخذون منها لمؤلفاتهم ما يناسب أغراض التأليف عندهم[9].

وأوضح بيرجشتريسر أن النسخة التي ينشرها فيها زيادات، بعضها لحنين من خلال التصويبات المتكررة لهذه الرسالة بين عامي 241 هـ/ 855م، عام بداية التأليف وعام 249 هـ/ 863م، وهو العام الذي أثبته حنين في آخر هذه النسخة المنشورة. وبعضها لا يمكن نسبتها لحنين البتة مستدلاً على ذلك بوجود البسملة في مفتتح المخطوط، التي يستحيل، كما يرى بيرجشتريسر، أن تنحدر من قلم مسيحي[10]. أما الزيادات الأخرى، فحنين نفسه يشير إليها في نهاية رسالته[11]، وأنه سيقوم بإثبات أية زيادات تطرأ. ثم هناك زيادات لغير حنين حاول بيرجشتريسر تعرّفها من خلال ما رأى أنه خلل في بناء الفقرات أو المعلومات الزمنية المتعلقة ببعض الأسماء. وقد وضع هذه الزيادات بين أقواس تعريفية في نهاية الفقرات، وهي معلومات تكميلية عن الكتاب قيد العرض بعد زمن حنين بن

إسحاق، وختم بالاعتذار لعدم إيراد سيرة لحنين، تلاه النص العربي متبوعاً بالترجمة الألمانية[12].

وفي الكتاب التالي الذي أصدره بعد سبع سنوات من تاريخ صدور الكتاب الأول؛ أي عام 1932 بعنوان "مصادر جديدة حول ترجمات حنين بن إسحاق لكتب جالينوس[13]"، نقف على باعث بيرجشتريسر من تأليف هذا الكتاب، وهو اكتشاف نسخة جديدة من رسالة حنين بن إسحاق المنشورة[14] في كتابه الأول عام 1925 وفيها ملحق بعنوان "مقالة لحنين بن إسحاق في ذكر الكتب التي لم يذكرها جالينوس في كتبه" . عثر على هذه النسخة المستشرق ريتر Ritter في المكتبة نفسها التي عثر فيها بيرجشتريسر على نسخته الأولى، وهي مكتبة آيا صوفيا باسطنبول تحت رقم (3590) ، وقام الطبيب والمستشرق مايرهوف بتفحص النسخة الجديدة بملحقها وإرسال نسخة مصورة عنها لبيرجشتريسر، فما كان من الأخير إلا أن ارتحل إلى إسطنبول بدعم من إحدى المؤسسات العلمية، وصور المخطوط الجديد ثم أخضعه للدرس والمقارنة مع المخطوط الأول المنشور. ومن بين خلاصاته، أن هذه النسخة الجديدة تشكل مراجعة أخرى من مراجعات حنين لرسالته الخاصة بما ترجم من كتب جالينوس، لكنها لا تضيف جديداً جوهرياً. فالرسالة الأولى كتبت نحو عام 241هـ/ 855م، وروجعت وضمنت الزيادات عام 249 هـ/ 863م، وهي النسخة التي حققت ونشرت في كتابه الصادر عام 1925.

وتعد هذه النسخة مراجعة أخرى يرجح أنها تمت بين عامي 249- 260 هـ/ 863-873م)، وهو العام الذي توفي فيه حنين بن إسحاق . وتكمن أهميتها في تمكين الدارس من متابعة الزيادات التي طرأت على القائمة في السنين الفاصلة. وهذا يعني - كما يذكر بيرجشتريسر- أنه أمام عمل جديد، وعليه فإن المقارنات القائمة بين النسختين لا تخدم تصويب إحداهما على أساس الأخرى، بل تصويب المعلومات المثبتة بناء على الأرجح نظراً للمراجعات التي تمت في النسخة الأخيرة[15].

وقد وصف بيرجشتريسر المخطوط الجديد حجماً وورقاً وخطاً، وذكر أنه إجمالاً أسوأ حالاً من السابق، وهو بلا تاريخ، ويَرْجِع تاريخ نسخه ترجيحاً إلى القرن التاسع الهجري، وأنه مثل سابقه خضع لمراجعات وزيادات.

وقد تمت المقارنة في هذا الكتاب الجديد ليس فقط بين مخطوطين وتصويب أخطاء النسخة الأولى التي ظهرت في سياق المقارنة، بل بينهما وبين الأصول اليونانية المتوافرة والمصادر التاريخية والمراجع الحديثة. لكن برجشتريسر لم يُعِدْ نشر هذه النسخة الجديدة التي رآها أسوأ حالاً من الأولى، واكتفى بنشر وترجمة الملحق الذي رآه يشكل الزيادة الجوهرية في النسخة الجديدة.

وأهم ما أثبته من خلاصات حول المخطوطين هو أن المحتوى العام للمخطوطين واحد، لكن هناك ثغرات وأخطاء ظهرت من خلال المقارنة لصالح المخطوط الجديد. وقد أشار إلى جميع التصويبات اللازمة سواء تعلق الأمر بالصيغ اللغوية لبعض العبارات أو الإملاء أو رسم الأسماء أو بالأخطاء التي ظهرت في نسخته المنشورة، مع تأكيده أن هذه التصويبات ليست قادحة في صورة النص المنشور[16].

وبناء على ما سبق، سيتم الاعتماد على النص المنشور عام 1925؛ لأن المخطوط الثاني لم يتضمن سوى التصويبات الرئيسية لأصل المحتوى الأول، وليس منشوراً أصلاً، والزيادة الأساس هي مجرد ثبت لكتب لم يُضَمِّنْها جالينوس فهرس كتبه.

• فكرة الرسالة ومحتواها

لابد أن تستوقفنا فكرة هذه الرسالة قليلاً، أو الباعث على كتابتها، وهي، كما كتب حنين بن إسحاق نفسه: "الحاجة إلى كتاب يجمع فيه ثبت ما يحتاج إليه من كتب القدماء في الطب، ويتبين الغرض في كل واحد منها، وتعديد المقالات من كل كتاب وما في مقالة مقالة منها من أبواب العلم، لتخف به المؤونة على الطالب باب باب من تلك الأبواب عند الحاجة تعرض إلى النظر فيه ويفهم في أي كتاب يوجد وفي أي مقالة منه وفي أي موضع من المقالة"[17]. فالباعث، إذن، علمي، حضاري يكشف كثرة العلم وتنوعه، وبروز الحاجة إلى الإحصاء والتصنيف والتبويب في أعمال موجزة جامعة، وهي حاجة تفرض نفسها بقصد الترتيب والتنظيم والتصنيف لأبواب العلم.

وظهور مثل هذه الرسالة في سياق الحضارة العربية الإسلامية، وفي القرن الثالث تحديداً، إنما يكشف مستوىً للعلم عالياً وغزيراً، أخذ يتطور وتزداد الحاجة إلى فهارس

ومختصرات، كما ظهرت بعدئذ في "إحصاء العلوم" للفارابي (ت 339هـ/ 950م)، وفي "الفهرست" لابن النديم (ت348هـ/ 1047م)، وفي "مفاتيح العلوم" للخوارزمي البلخي الكاتب (ت 387هـ/ 997م)، وهو ما يعزز قيمة العلم في المجتمع العلمي للحضارة العربية الإسلامية.

حين طلب إليه صديقه نديم الخليفة العباسي المتوكل (ت ٢٤٧هـ) علي بن يحيى المنجم إنجاز ذلك الكتاب، أقرَّ حنين بن إسحاق الحاجة إلى مثل ذلك الكتاب، لكنه اعتذر عن القيام بتلك المهمة التي تشمل إحصاء جميع ما ألف وترجم في الحقل الطبي؛ مُحتجاً بأنه فقد جميع كتبه التي كانت ستعينه على إنجاز مثل تلك المهمة. ولم يعرض للظرف التاريخي الذي فقد فيه كتبه، ولعلها صودرت منه أيام محنته مع المتوكل ووضعه في السجن[18]؛ لأنه يتقدم برجاء لصديقه علي بن يحيى في إمكان الاستعانة به لاسترداد كتبه. وبعد التفكير والتأمل يقبل حنين أن ينجز كتابا (هذه الرسالة)، يقتصر فيه على ما تُرجم من كتب جالينوس فقط؛ لأنه –كما بَيَّن– كان أعد هذا الكتيب سلفاً لرجل من السريان سأله أن يقوم بكتابة ثبت (قائمة) عما ترجم من كتب جالينوس. وقد أنجز ذلك الكتاب بالسريانية بعد فقد كتبه، لكن هذا الكتاب فقد هو الآخر، فاعتمد حنين على ذاكرته لإنجاز هذه الرسالة التي بين أيدينا ، وفيها يبين حنين بكلماته: **"ما ترجم من هذه الكتب إلى اللسان السرياني والعربي وما لم يترجم، وما كنتُ أنا المتولي لترجمته دون غيري، ثم عدت فيه فترجمته أو أصلحته، ومَنْ تولى ترجمة كتاب كتاب من تلك الكتب التي ترجمها غيري، ومبلغ قوة كل واحد من أولئك المترجمين في الترجمة، ولمن ترجمتُ، ومن الذين ترجمتُ أنا لهم كل واحد من تلك الكتب التي توليتُ ترجمتها وفي أي حد من سني ترجمته"** [19].

هذه المقدمة التي يستهل بها حنين رسالته هي المشهد الأول من مشاهد مجتمع المعرفة العباسي في بغداد، وما فيه من حَرَاك علمي، وفيها الإشارة إلى كثرة العلم وتنوعه، والحاجة إلى كتاب جامع تعليمي يستفاد منه لمعرفة الموضوعات الطبية في الكتب والمقالات والأبواب، لاسيما أنه قد أشار إلى أن جالينوس نفسه كان قد أعد فهرساً لكتبه المؤلفة مبيناً فيها محتواها كما أعد مقالة عن كيفية قراءة كتبه من قبل المتعلمين والمتخصصين.

واحتوى هذا الكتاب على ذكر 129 عنواناً من كتب جالينوس. وقد اتخذ حنين بن إسحاق نهجاً واحداً في عرضه لما ترجم من كتب جالينوس، فهو يذكر أولاً عنوان الكتاب وعدد مقالاته، ثم يستعرض محتوى المقالات واحدة واحدة ، وصلة هذا الكتاب أو تلك المقالات بمنهاج تعلم الطب إن وجد. وهكذا. ثم ينتقل تالياً إلى ذكر مَنْ ترجم هذا الكتاب أول الأمر، ويعطي رأيه في الترجمة، وبعد ذلك يستعرض الترجمات اللاحقة، ولمن أُعِدَّت هذه الترجمات من الأطباء أو المهتمين عامة بالتراث اليوناني. وقد أفاد هذا النهج في معرفة ما تمت ترجمته إلى السريانية ابتداء، ومنها إلى العربية، وما ترجم إلى السريانية والعربية معاً، وما تمت ترجمته إلى العربية مباشرة ومنها إلى السريانية. وهو ما يعين على مراقبة دخول العربية ميدان العلم الطبيعي، وبداية سيادتها على حساب السريانية التي كانت حتى حينئذ لغة العلم السائدة.

أما الشخصيات التي ذكرت في الكتاب بوصفها الطالبة لتلك الترجمات والمستفيدة منها، فقد تنوعت بين رجال دولة وشخصيات علمية إسلامية، أمثال علي بن يحيى الذي تصدر اسمه هذه الرسالة، والإخوة بني موسى بن شاكر، وبين أصدقاء وزملاء مهنة وأطباء وجلهم من المسيحيين السريان، أمثال جبريل بن بختيشوع، ويوحنا بن ما سوي، وسلمويه بن بنان، وجميعهم كانوا أطباء لمن عاصرهم من الخلفاء العباسيين.

وعلى الرغم من أن الكتاب في الظاهر إنما هو ثبت لما تُرْجِم من كتب جالينوس وموضوعاتها، فإن ما تضمنته هذه الرسالة من معلومات قيمة تفيد في إلقاء ضوء جديد على عصر الترجمة وعلى طبيعة المجتمع العلمي في بغداد. ويمكن أن نقف على مجمل فوائد تلك الرسالة من خلال محاور عامة، هي:

1-المترجمون وتطور الترجمة.

2- منهج حنين في الترجمة.

3- إنجاز الجوامع والمختصرات.

4 - مجتمع المعرفة في بغداد واستجلاب العلم اليوناني.

5 - العلاقة بين مدرسة الإسكندرية ومدرسة بغداد.

1 - المترجمون وتطور الترجمة

ذكر حنين بن إسحاق في رسالته أربعة عشر مترجماً من القدماء والمعاصرين له، وأقدم هؤلاء المترجمين هو "سرجس الرأس عيني" الذي توفي عام 536 م، يليه تيوفيل الرهاوي الذي توفي في 785م، ولا تتوافر لمن سبق عصر حنين تواريخ وفاة أكيدة ولا لكل معاصريه أيضاً. لكن أيوب الرهاوي وابن سهدا الكرخي ويوسف الخوري والشملي يُعَدُّون من السابقين لحنين في الترجمة، وإن كانت التقديرات تشير إلى أن نشاطهم العلمي في الترجمة قد وقع أوائل القرن التاسع الميلادي، وهو الزمن الذي ولد فيه حنين (808 - 873م). ولأن حنين بدأ نشاط الترجمة مبكراً، إذ ذكر أن أولى ترجماته أنجزها وهو في سن السابعة عشرة، فيمكن أن يعد أيوب الرهاوي وابن سهدا ويوسف الخوري معاصرين جزئياً قبل أن يظهر حنين مترجماً بارزاً.

أما من عاصره يقيناً من بقية المترجمين الذين ذكرهم فهم :اصطفن بن بسيل، ويحيى البطريق، وتوما الرهاوي، وثابت بن قرة، ومنصور بن آثاناس، وإبراهيم بن الصلت، ويوحنا بن بختيشوع، ثم ابنه إسحاق بن حنين، وابن أخته حبيش بن الحسن، وعيسى بن يحيى، وهؤلاء الثلاثة هم تلامذة حنين وأصل مدرسته. وهم الذين بلغوا بالترجمة ذروة لم تعرفها من قبل، فأسسوا لمن بعدهم. أما من جاء قبلهم فلم يبلغوا بترجماتهم حداً مرضياً من الفهم والتجويد؛ لأن ما ترجموه احتاج إلى تصويب وإعادة ترجمة كما يظهر في ثنايا رسالة حنين. ويجدر التنويه إلى أن كل من ذكر من المترجمين كانوا من المسيحيين، باستثناء اثنين، هما ثابت بن قُرَّة، ومنصور بن آثاناس فقد كانا من الصابئة[20]، ثم دخل ثابت بن قرة بعدئذ في الإسلام.

وكثيراً ما قيل عن حنين إنه شيخ مترجمي عصره، وإنه بَزَّ المتقدمين والمعاصرين، وغطى ألق اسمه على السابق واللاحق من المترجمين إلى اليوم. وهذه الرسالة تقدم الدليل القاطع على صدق هذا القول. فهي تظهره عالماً مستوعباً للتراث اليوناني، وأستاذاً ومرجعاً حاسماً في الترجمة وكشف الزيف في المؤلفات المنسوبة لهذا المؤلف أو ذاك. وكل ذلك يظهر

بجلاء في سياق عرضه لما ترجم ، وذِكْر أول من ترجم الكتاب الذي يعرض له، ورأيه في تلك الترجمة، ولمن ترجم الكتاب تالياً وصوَّبه وقوَّمه. وكان هو المصوب في جل الحالات، بل المعيد للترجمة كلها في معظم الحالات. وقد تكرر في سياق التصويبات والتقييمات ذكر من سبقه من المترجمين إلى ترجمة تلك الكتب، وقد وقع الذكر الأوفر على سرجس الرأس عيني وعلى أيوب الرهاوي لكثرة ما ترجماه ولكثرة أغلاطهما .

استخدم حنين في تقييماته ألفاظاً محددة تكررت بعدئذ في سياق العرض، مثل "ضعيف"، و"فاسد"، و"ترجمة رديئة وسيئة"، وفي موضعين يصف الترجمة بأنها "خبيثة ورديئة"، كما سنرى.

وصف حنين ترجمة ابن سهدا بالضعيفة (20/3)،[21] ونوَّع في أوصاف ترجمة سرجس، فوصفها بالرديئة (7/7)، وبقلة الفهم وإفساد النص (9/11) ، وبأن ترجمته ترجمة سوء (10/13) وترجمة غير محمودة (12/15)، لكنه أنصفه أيضاً ورأى أنه قوي بعض القوة (7/6)، وبأنه ارتاض في الترجمة بعدئذ، وتدرب وأصلح من ترجمته (20/14).

تلك كانت أمثلة فقط من تقييماته لترجمات سرجس في الكتب المشار إلى أرقامها. وقد قام حنين بإصلاح أو إعادة ترجمة معظم ما نسب لسرجس من ترجمات. أما أحكامه على ترجمات أيوب الرهاوي، فتختفي فيها الأوصاف الحادة التي كيلت لسرجس، ولعل معاصرة حنين لأيوب الرهاوي المحتملة أو معاصرته لأعقابه، هو ما منع حنيناً من استخدام التقييمات الحادة المستخدمة في تقييم ترجمات سرجس، مكتفياً بالعبارات التالية في كل ما أعاد ترجمته بعد ترجمات أيوب الرهاوي: **"وكان ترجم هذا الكتاب أيوب الرهاوي، فأعياني إصلاحه فأعدتُ ترجمته"** (21/24): **"وقد كان أيوب ترجمه وأعدتُ ترجمته"** (21/25)، **"وترجم أيوب الرهاوي أيضا هذا الكتاب وأعدتُ أنا ترجمته"** (21/27)، **"وقد كان أيوب ترجم هذا الكتاب ثم تَلَخَّصْته بالمساعدة"** (23/35)، والمقصود من تلخصه، أي أنجز له ترجمة موجزة. **"وكان أيوب ترجمه ترجمة لا تفهم"** (24/37). لكن أيوب الرهاوي أُنصف أيضاً حين استعرض حنين ترجمة يوسف الخوري للمقالات الخمس الأولى من كتاب "الأدوية المفردة" (29/53)، فذكر أنها: **"ترجمة خبيثة رديئة، ثم ترجمه بعد أيوب أصلح مما**

ترجمه يوسف، ولم يتخلَّصه (يستخرج معانيه) **على ما ينبغي، ثم ترجمته"**؛ أي أن أيوب، وإن كان قدم ترجمة أصلح من ترجمة الخوري، فإنه لم يُجِدْهَا؛ مما استدعى إعادة الترجمة من قبل حنين. وهذا الوصف **"الخبث والرداءة"** يتكرر في وصف ترجمة تيوفيل الرهاوي لكتاب "في الحيلة لحفظ الصحة"، (39/84). ثم هناك ترجمات لأيوب الرهاوي ذُكِرت دون تعليق، مثل ترجمة "تفسير جالينوس لكتاب "أبيذيميا" (41/95)، ومنه المقالة الأولى التي **"ترجمها أيوب إلى السريانية وترجمتها أنا إلى العربية"**، يقول حنين.

وفيما يتعلق بموقف المجتمع العلمي من الترجمات المنجزة، هناك خبران يحسن إيرادهما لصلتهما بتعارض الأذواق والأساليب بين المترجم والمتلقي. ففي الخبر الأول، يرد ذكر وزير المتوكل محمد بن عبد الملك الزيات (ت 233هـ)، وأنه غَيَّر وبَدَّل في ترجمة كتاب "الصوت" (24/38) التي أنجزها حنين، بحسب ما كان يرى الزيات أنه أجود، لكن حنيناً يستشهد بذوق محمد بن موسى بن شاكر حين يذكر أن محمداً نظر في النسخة الأصل، وفي التعديل فاختار النسخة الأصل. وهو يذكر هذا دفعاً للاختلاط بين النسختين للكتاب نفسه. وفي الخبر الثاني، يترجم حنين كتاب "الامتلاء" (30/56) للطبيب بختيشوع على عادته كما يقول: **"بأبلغ الكلام وأفحله وأقربه لليونانية"**. لكن بختيشوع لم تَرُقْه هذه الترجمة، فطلب تغييرها بكلام: **"أسهل وأملس وأوسع من الكلام الأول"**، ففعل حنين هذا؛ أي أنه أرضى ذوق الزبون؛ لأنه كان يتقاضى الأجر من طالبي الترجمة.

تلك أمثلة منتقاة تلقي ضوءاً على بدايات حركة الترجمة وتطورها، وعلى طلب الدقة في الترجمات، وهي بهذا تشهد على تطور مجتمع المعرفة في ذلك الوقت، وزيادة حاجته لنصوص أوضح وأدق، تعين على استيعاب العلم وفهمه. وقد ساعد على هذا؛ وجود حنين بن إسحاق وتلامذته الذين أنجزوا ترجمات ممتازة وأعادوا ترجمة الضعيف مما سبق ترجمته.

2 - منهج حنين في الترجمة

تتجلى عبقرية حنين العلمية في حرصه على تقديم ترجمات ممتازة ورغبته في تجويد نصوصه من خلال مراقبة مستوى تجربته في الترجمة وتقدمها، وتقديم نقد ذاتي لترجماته الأولى والمتأخرة. كما يتجلى حسه المنهجي الباهر في علاقته بالنصوص المترجمة على نحو

يجعله رائداً لفن التحقيق والمنهج الفيلولوجي المُعَاصِرَين بشهادة بيرجشتريسر ومايرهوف[22] وشترومايار[23] . فعند وقوف حنين على نص غير تام الاستقامة، يقوم بالبحث عن نصوص أخرى، فيقابل بعضها ببعض ويستخرج نسخة يطمئن إليها، ثم يقوم بترجمتها بعد ذلك. وللتدليل على منهج حنين بن إسحاق العلمي في الترجمة، ومراقبة طبيعة النصوص الأصلية، وطلبه أقصى حالات الدقة واستحقاقه لكل الألقاب الشريفة التي مُنِحَها، فإن هناك أمثلة مما ذَكَرَ في سياق عرضه، وبلغته مباشرة، سيتم إيرادها ما وجدتُ إلى ذلك سبيلاً، ليتسنى الوقوف على روح مجتمع المعرفة العباسي وذوقه اللغوي والعلمي.

وفيما يتعلق بمراقبته لمستوى ترجمته وتطورها، يذكر في سياق عرضه لكتاب "الفرق" (3/ 4،5) أنه ترجم هذا الكتاب وهو حدث في العشرين من عمره من نسخة يونانية كثيرة الأسقاط، ثم أعاد ترجمته وهو في الأربعين بعدما: **"اجتمعتْ له عندي عدة نسخ يونانية، فقابلتُ تلك بعضها ببعض حتى صحت منها نسخة واحدة، ثم قابلتُ بتلك النسخة السرياني وصححته، وكذلك من عادتي أن أفعل في جميع ما أترجمه"**. ويكرر هذا القول في سياق عرضه لكتاب "في العروق الضوارب" (26/43) يقول: **"وقد كنت ترجمته وأنا غلام إلى السريانية لجبريل، إلا أني لم أثق بصحته؛ لأن نسخته كانت واحدة كثيرة الخطأ، ثم إني بآخره استقصيتُ ترجمته إلى السريانية"**. والعبارات نفسها الدالة على حرص حنين على تماسك النص المترجم، وعلى تقييمه الموضوعي لترجماته، تتكرر في سياق عرض كتب أخرى.

وفي سياق عرضه لكتاب "حيلة البرء" (20 / 17،18)، يذكر أن هذا الكتاب يتألف من أربع عشرة مقالة، وأن سرجس أتم ترجمةً لهذا الكتاب، فكان ضعيفاً في المقالات الست الأولى، ثم جوَّد ترجمته في المقالات الثماني الباقيات. ثم إن المستفيد من هذا الكتاب سلمويه بن بنان، أراد التأكد من صحة ترجمة الجزء الثاني، فاتفق مع حنين أن يمسك هو بالنسخة السريانية ويقرأها مع حنين باليونانية، فتبين أن هناك أغلاطاً كثيرة، وأن إعادة ترجمة الكتاب كاملاً أسهل من هذه التصويبات المضنية هنا وهناك. بعد ذلك طلب سلمويه من حنين ترجمة مقالات الجزء الثاني هذا من أوله، ففعل حنين. لكن هذه الترجمة ضاعت بعدئذ في حريق سفينة في الفرات كانت متجهة صوب بغداد، ولم يكن عنده نسخة منها، فأعاد حنين ترجمته بعد سنين لبختيشوع. يقول حنين: **"وكانت عندي للثماني مقالات الأخيرة منه عدة**

نسخ باليونانية، فقابلتُ بها وصححتُ منها نسخة وترجمتُها بغاية ما أمكنني من الاستقصاء والبلاغة، فأما الست المقالات الأول فلم أكن وقعت لها إلا على نسخة واحدة، وكانت مع ذلك نسخة كثيرة الأخطاء، فلم يُمْكِنِّي لذلك تَخَلُّص (استخراج) **تلك المقالات على غاية ما ينبغي. ثم إني وقعت على نسخة أخرى فقابلت بها وأصلحت ما أمكنني إصلاحه، وأخلو** (آمل) **إلى أني أقابل به ثالثة إن اتفقت لي نسخة ثالثة، فإن نسخ هذا الكتاب باليونانية قليلة".**

ولم يقتصر جهد حنين على استخراج (أو تخلص) النص الموثوق به ليترجمه، بل تعداه إلى التثبت من المؤلف الأصل للكتاب أو المقالات ونسبة المقالات إلى أصحابها. ففي سياق عرض كتاب "في الأدوية التي يسهل وجودها" (38/80)، يذكر أن نسخة هذا الكتاب اليونانية مفقودة، وأن المتوافر فقط نسخة رديئة فاسدة من ترجمة سرجس. ورأى أن هناك مقالة أضيفت إلى الكتاب ونسبت لجالينوس، يقول حنين:**"وما هي لجالينوس، لكنها لفلغريوس، وقد رأيتُ تلك المقالة بل ترجمتها مع مقالات لفلغريوس لبختيشوع إلى السريانية"**. وفي سياق عرضه لكتاب "تفسير جالينوس لكتاب أبيذيميا" (41/95)، يذكر أن هذا الكتاب كان بحوزته: **"وكان كثير الخطأ منقطعاً مختلطاً فتخلصته حتى نسخته باليونانية ثم ترجمته".**

وفي سياق عرضه لكتاب بعنوان "جملة كتابه الكبير في النبض" (33/60)، يظهر حنين حسه النقدي على نحو مذهل حين يقول: **"ذكر جالينوس أنه أجمل كتابه الكبير في النبض في مقالة واحدة، وأما أنا فقد رأيت باليونانية مقالة ينحى بها هذا النحو، ولست أصدق أن جالينوس الواضع لتلك المقالة لأنها لا تحيط بكل ما يُحتاج إليه من أمر النبض، وليست بحسنة أيضاً، وقد يجوز أن يكون جالينوس قد وعد أن يضع تلك المقالة فلم يتهيأ له وضعها، فلما وجده بعض الكذابين قد وعد ولم يف، تَخَرَّص وضع تلك المقالة وأثبت ذكرها في الفهرست كيما يُصّدَّق فيها. ويجوز أن جالينوس أيضاً قد وضع مقالة في ذلك غير تلك قد دَرَسَت كما دَرَسَ كثير من كتبه، وافْتُعِلت هذه المقالة مكانها"**. ومثل هذا قوله في كتاب "تشريح آلات الصوت" (23/34): **"هذا الكتاب مقالة واحدة، وهو مفتعل على لسان جالينوس وليس هو لجالينوس ولا لغيره من القدماء، لكنه لبعض الحدث جمعه من كتب جالينوس وكان الجامع له ضعيفاً"**؛ أي أن الجامع لذلك الكتاب ممن هو جديد على الصنعة (حدث).

وفي سياق عرضه لكتاب (44،43/101) "تفسيره لكتاب طبيعة الجنين"، **يقول حنين: "هذا الكتاب لم نجد له تفسيراً من قول جالينوس، ولا وجدنا جالينوس ذكر في فهرست كتبه أنه عمل له تفسيراً، إلا أننا وجدناه قد قسَّم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء في كتابه الذي عمله في علم أبقراط بالتشريح، وذكر أن الأول والثالث من هذا الكتاب منحول، ليس هو لأبقراط وإنما الصحيح منه الجزء الثاني. وقد فسَّر هذا الجزء جاسيوس الإسكندراني، وقد وجدنا لجميع الثلاثة الأجزاء تفسيرين، أحدهما سرياني موسوم بأنه لجالينوس، وقد كان ترجمه سرجس، فلما فحصنا عنه علمنا أنه لبالبس، والآخر يوناني، فلما فحصنا عنه وجدناه لسورانوس الذي من شيعة الموثوذيقو"**[24].

وهذه السطور هنا تظهر بجلاء حس حنين العلمي كما يتداول اليوم، وتضلعه في اليونانية، وعمق استيعابه للتراث اليوناني وشُرَّاحه إلى درجة مكنته من تفحص المخطوطات والشروح والحكم بثقة عليها ونسبتها لأصحابها أو إعلان انتحالها.

وفي سياق العرض لكتاب "البرهان" (48،47/115)، تتكشف همة المجتمع العلمي في بغداد للبحث عن نسخة يونانية للكتاب؛ لأنه لا أحد من أهل زمان حنين، كما يذكر، يحوزُه على الرغم من شدة الطلب والبحث عنه من قبل كثيرين، منهم جبريل بن بختيشوع وحنين نفسه، إذ قال: **"وقد طلبته أنا غاية الطلب، وجُلْتُ في طلبه بلاد الجزيرة والشام كلها، وفلسطين ومصر إلى أن بلغت الإسكندرية، فلم أجد منه شيئاً إلا بدمشق نحواً من نصفه، إلا أنها مقالات غير متوالية ولا تامة. وقد كان جبريل أيضاً وجد منه مقالات، ليست كلها المقالات التي وجدت بأعيانها، وترجم له أيوب ما وجد. وأما أنا فلم تطب نفسي بترجمة شيء منها إلا باستكمال قراءتها لما هي عليه من النقصان والاختلال، وللطمع وتشوف النفس إلى وجود تمام هذا الكتاب"**.

والسطور الأخيرة من هذا الاقتباس تستنهض في النفس إكباراً لحنين ولإخلاصه للعلم وشغفه بالكمال الممكن، ومتابعته لما يعثر عليه من مخطوطات كي تطمئن نفسه القلقة علمياً، إلى نص سليم يقرؤه ويستوعبه ثم يترجمه.

3 - إنجاز الجوامع والمختصرات

أما إسهامات حنين العلمية في إنجاز الجوامع والمختصرات، فتظهر تميزه العلمي وتجاوزه مهارة الترجمة إلى استيعاب عميق للتراث الطبي اليوناني المتاح له، ولاسيما تراث جالينوس، وقدرته على استعادة محتويات ما ترجم من كتب بإيجازٍ وافٍ من الذاكرة كما تظهر هذه الرسالة؛ يشهد وحده على عمق استيعابه لموضوعات الطب، لدرجة مكنته بعدئذ من إنجاز (مختصرات) لبعض الكتب التي رأى فائدة في تحويل مقالاتها المفصَّلة إلى مختصرات، كما تمكن من جمع مقالات متفرقة لموضوع واحد تحت مسمى "جوامع"، لتتم ترجمتها لاحقاً على نحو مستقل.

وتعني مفردة "جوامع" كما ترد في سياق الرسالة، ضم مقالات متشابهة بعضها لبعض، أو مختصرات وشروح ذات صلة بعضها ببعض؛ ليسهل الاطلاع على المادة المطلوبة في كتاب واحد. ويبدو أنه قد اهتدى إلى فكرة المختصرات والجوامع هذه من خلال مختصرات وجوامع أعدت باللغة اليونانية؛ إذ تورد الرسالة ذكراً لمختصرات أعدها جالينوس نفسه لكتب غيره كما في كتاب "في اختصار كتاب مارينس في التشريح" (20/22)، وكتاب "في اختصار كتاب لوقس في التشريح" (20/23)، أو في قصة مختصر كتاب جالينوس الكبير "في النبض" (33/60)، كما تُذكَر بعض جوامع لجالينوس مثل "جوامع كتاب حيلة البرء"، و"جوامع العلل والأمراض"، و"جوامع النبض الكبير"، وهي جوامع ترجمها حنين لأحمد بن موسى بن شاكر، (../52). وهناك جوامع من عمل أهل الإسكندرية قديماً، وضعت تحت عناوين مقترحة مثل "كتاب العلل" (11/14)، وهي مقالات لم يجعلها جالينوس في كتاب واحد ولا عَنْوَنَها بعنوان واحد، لكن أهل الإسكندرية، كما يذكر حنين، جمعوها ومنحوها عنواناً واحداً.

أما ما أنجز حنين نفسه من مختصرات، فهي اختصاره لكتاب "الأدوية المفردة" (30/53)، وكتاب "التدبير الملطف" (36/75). كما اختصر معاني كتاب "تدبير الأمراض الحادة على جهة السؤال والجواب" (41/92)، واختصر جوامع كتاب "جراحات الرأس" (40/94). أما الجوامع التي أنجزها حنين فهي إنجازه جوامع لكتاب قطيطريون بالسريانية، ثم ترجمه حبيش إلى العربية.

وبالإضافة إلى الجوامع والمختصرات المتصلة بمؤلف واحد، يذكر حنين في هذه الرسالة أنه ضم إلى هذا الكتاب أو ذاك من كتب جالينوس ما رآه مفيداً من كلام (أبُقراط) وأنه في هذا السياق إنما ترجم وضم "فُصَّ كلام بُقراط" أي جوهره ومجمله. يرد ذلك في سياق عرضه "لكتاب الكسر"(89/40) وكتاب "تدبير الأمراض الحادة"، (41/92) وكتاب "القروح" (41/93) لجالينوس، وأنه ترجم الكتابين إلى السريانية كما ترجم معهما أيضا "فُص كلام بقراط". وأحياناً يضيف حنين من عنده شرحاً وجيزاً إلى ما ضم من جوهر كلام أبقراط، كما جاء في سياق التعريف بكتاب "الغذاء" (43/100)، وأنه كان يرغب في إضافة جوهر كلام أبقراط إليه، ولم يتمكن من ذلك لانعدام نسخة من كلام أبقراط. وقد صرح بمثل هذا في سياق عرض كتاب "جراحات الرأس" (41/94)؛ إذ يقول: **"وترجمتُه أنا إلى السريانية ولم أجد نسخة فص كلام بُقراط وعملتُ من بعد مختصرا لجوامعه"**. وفي عرضه لكتاب "تقدمة المعرفة" (40/91)، يذكر أنه ترجم الكتاب كاملاً إلى السريانية كما ترجم مجمله أو جوهره (فص كلامه) إلى العربية.

تلك كلها أمثلة تدل على عقلية علمية منظمة مدركة لقيمة العلم وأهميته؛ فهي تبحث وتستقصي وتقارن وتستخرج النص الموثوق وتكشف المزيف، وهو ما أسسه حنين وتلامذته وشكل أساساً متيناً في صرح مجتمع المعرفة العباسي في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. إنها عقلية تختصر المطول وتؤلف الجوامع وتضيف الشروح وجوهر كلام السابقين الأفذاذ مثل أبقراط لتعم الفائدة.

وما كان هذا ليحدث كل هذا على هذا النحو لولا شيوع الشغف بالعلم واتساع دائرة مجتمع المعرفة في ذلك الوقت، وزيادة الطلب على العلم اليوناني في أفضل حلة وأوثق نسخة، وهو ما يعبر عنه اليوم بالعلاقة بين المخرجات التعليمية والسوق. لقد كانت تلك السوق سوقاً صحية تشجع الإنتاج العلمي، وتحترم العقل وتوقر العلم وأهله. وهذا يقودنا إلى التعريف بذلك المجتمع العلمي، ورعاة الترجمة الذين شغفوا بالتراث اليوناني وأعدت لهم الكتب ترجمة ومختصرات وجوامع، ودفعوا أجور كل ذلك برضى وطيب خاطر.

4 - مجتمع المعرفة في بغداد واستجلاب العلم اليوناني

قبل الدخول إلى سطور حنين، نشير إلى أن غوتاس، في كتابه "الفكر الإغريقي والثقافة العربية"[25]، يتحدث بغزارة عن دعم خلفاء بني العباس للعلم والترجمة، وتبنيهما لهما ضمن رؤية أيديولوجية، تهدف إلى صياغة مجتمع إسلامي جديد، يغاير ما كان عليه الحال أيام الأمويين. كما أكد غوتاس اشتراك فئات اجتماعية كثيرة في دعم العلم والترجمة تحديدا[26]. وهذا الرأي يدعم أطروحة دور المدينة الإسلامية والمجتمع الإسلامي في تطوير العلم والمعرفة الإسلامية[27]. وسنرى كيف يصور حنين بن إسحاق طبيعة مجتمع المعرفة في زمنه، وهو تصوير يدعم فكرة مجتمع المعرفة الضروري للحضارة من خلال عرض شريحة منه ذات صلة بكتب جالينوس.

وقد ذكرت الرسالة أسماء من ترجمت لهم تلك الكتب، وبتفحص الأسماء والوظائف يمكن، جرياً على سنة مايرهوف[28]، تصنيف طُلَّاب الترجمات إلى صنفين، بحسب الدين والوظيفة، فالصنف الأول غالبيتهم من المسيحيين المشتغلين في الطب عموماً أمثال بختيشوع بن إبراهيم، وجبريل بن بختيشوع، ومن وصف بالمتطبب داود وسلمويه وشيريشوع ويوحنا بن ماسويه. وهؤلاء طلبوا ترجمات بالسريانية. أما الصنف الثاني، فغالبيتهم من المسلمين، أعدت لهم الترجمات بالعربية. ومنهم أكابر رجال الدولة والأعيان مثل الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، وأبو الحسن علي بن يحيى الذي كتبت له هذه الرسالة، وأولاد موسى بن شاكر (محمد وأحمد)، وهؤلاء ذاعت شهرتهم في علوم الهندسة والرياضيات والفلك، ولم يؤثر عنهم ما يدل على انشغالهم في الطب، ومع ذلك فإن نصف ما ترجم تقريباً من تراث جالينوس الطبي كان لهم وبطلبهم.

ولو اقتصرنا على هذه القائمة، فإن هناك اسمين لهما صلة بوظائف الدولة، وهما الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، وعلي بن يحيى المنجم، نديم الخليفة المتوكل. وهما يظهران في الرسالة بوصفهما شخصيتين علميتين مهتمتين بالتراث اليوناني، وهما مثل أولاد موسى بن شاكر لا صلة لهما بالطب كمهنة، لكنهما بحكم قربهما من بلاط الخلافة وغِناهما أظهرا ولعاً بالعلم وكانا سَخِيين في الحصول عليه. ذكر ابن أبي أصيبعة أن محمد عبد الملك الزيات كان

ينفق 2000 دينار شهرياً أجور ترجمة[29] . وذكر ابن النديم في الفهرست أن علي بن يحيى المنجم كان يشتري كتباً بالجملة من مكتبات خاصة[30]. أما أولاد موسى بن شاكر، فقد أظهرت سِيَرَهم أيام الخليفة العباسي المأمون (ت 218هـ) صلتهم ببيت الحكمة، لكنهم في رسالة حنين هذه يذكرون بأسمائهم على نحو يظهرهم رُعاة للعلم والترجمة، من خلال شغف لا حد له بالتراث اليوناني، وهو شغف يمكن مقارنته بشغف الأطباء السريان وآل بختيشوع بخاصة، بحكم اشتغالهم أطباء في بلاط الخلافة لأجيال. فاقتناء كتب الطب ودفع أجور ترجمتها من قبل بني موسى مثلاً دون الاشتغال بالطب تحديداً يعد دليلاً على شيوع شغف المعرفة العام في عصر الترجمة هذا ، وعلى أن اقتناء ترجمات التراث اليوناني أو الحصول على نسخة أصلية منه، قد عُدَّ معززاً للصورة العلمية والوجاهة المعرفية.

ومن الأدلة على مطالعة بني موسى لكتب الطب وحرصهم على نص عربي واضح مستقيم المعنى ما ذكره حنين في سياق عرضه لكتاب "الذبول" (35/72)، الذي ترجمه اصطفن بن بسيل إلى العربية؛ حيث قال: **"وأصلحتُ منه مواضع كان وقف عليها أبو جعفر وكان سألني عنها ولم أستتم إصلاحه"**، يقصد بأبي جعفر محمد بن موسى بن شاكر، أحد الإخوة الثلاثة المشتغلين بالهندسة والفلك والرياضيات.

ولأن حنيناً لم يذكر قط أنه ترجم للخلفاء من بني العباس أو لبيت الحكمة، فقد أثار هذا سؤالاً مُلحاً عن هذا الغياب، وبخاصة في ضوء صورة بيت الحكمة الناصع في المراجع المعاصرة ودورها في الترجمة. ولأن حنيناً حظي بقرب خلفاء عصره وتوقيرهم له وأبرزهم الخليفة المتوكل، بعدما زالت عنه غمة السجن وازداد منه قرباً، فإن السؤال عن غياب أسمائهم في رسالته يفرض نفسه بحثاً عن إجابة.

فما الذي غيَّب ذكر بيت الحكمة أو أياً من أسماء خلفاء بني العباس عن 129عنواناً من تراث جالينوس؟ بعض الإجابة عن هذا السؤال يمكن أن نجده في انتقال العاصمة إلى سامراء، وفي حضور الصراعات السياسية المريرة التي شهدها عصر الخليفة العباسي المتوكل (232 - 247هـ/ 846 - 861م) ، وأثرت على دور الخلافة في مجال العلم والترجمة. وبعض آخر من الجواب يمكن أن نعثر عليه في استقلالية الجهود العلمية، وخروجها عن الوصاية أو

الإشراف الرسمي الذي بدأه العباسيون منذ عهد الخليفة المنصور (136 - 158هـ/ 744 - 753م) حتى الخليفة المأمون (204 - 218هـ/ 819 - 833م). لكن المأمون، على الرغم من شهرة دعمه للعلم والعلماء، لم يذكر أيضاً قط في رسالة حنين بوصفه داعماً للترجمة أو راغباً في ترجمة كتاب ما. وهو ليس معاصراً لحنين فقط، بل كان حنين ضمن رجال بلاطه، وقد صاحبه في بعض غزواته كما يذكر حنين في الرسالة[31].

ويؤكد السياق الذي ترد فيه أخبار الترجمات، ولمن تُرجمت، أن الترجمة، – وهذا أمر بدهي ابتداء – كان عملاً حراً وخاصاً يُرتزق منه، وقد يكون عائلياً، كما في قصة حنين نفسه، فقد كان هو وابنه وابن أخته من المترجمين. وهناك من ارتزق من الترجمة دون تأسيس عائلة للترجمة مثل ثابت بن قرة، وعيسى بن يحيى. وبما أن رسالة حنين هذه لم تذكر اسماً واحداً من المترجمين يتقاضى أجراً شهرياً من جهة رسمية، بيت الحكمة مثلاً!، فإن هذا معناه أن تطوراً مُهِماً حصل في علاقة الخلافة العباسية من جهة، وعلاقة المجتمع العباسي من جهة أخرى، بالتراث العلمي القديم كله. هذا التطور هو خروج المهام العلمية من إطار الرعاية الرسمية إلى رحاب المجتمع المعرفي الذي تكشفت أمامه الحاجة الملحة للحصول على المعارف القديمة للوفاء بحاجات المجتمع المتزايدة لهذه العلوم.

ولعل المأمون آخر خليفة عباسي اهتم بأمر العلم والعلماء على نحو مكثف وفق رؤية له خاصة. ومع ذلك فقد غاب ذكره في هذه الرسالة كما أشرنا. أما باقي الخلفاء، فقد خَفت ذكرهم في هذا الصدد، ومن ذكر منهم فقد اقتصر ذكره على التشجيع الأدبي والمادي أحياناً لمن اشتهر من العلماء وتقريبهم، دون أن يعني ذلك رعاية رسمية لرؤية علمية يحققها هؤلاء العلماء في أفق أيديولوجي كما كان الحال أيام المنصور[32].

لقد تطور أمر الترجمة فصارت مهنة حرة رابحة يُرتزق منها في سوق الترجمة الرائج في هذه الفترة، فكانت هي الأصل (المهنة الحرة) لا التوظيف الرسمي. وكل هذا إنما يدعم فكرة أن إنجاز الترجمة الضخم في الحضارة الإسلامية، كان عملية اجتماعية واسعة وأنها ثمرة مبدأ "العرض والطلب" الراسخ في عالم السوق والتجارة بلغة زماننا. وهي سوق لم تغب عنه الخلافة العباسية بوصفها الإطار السياسي والحضاري العام، فقد تحولت مؤسسة الخلافة

إلى سوق مربحة تستهلك العلم ومخرجاته بالنظر إلى حاجة المجتمع العباسي كله، وحاجة الخلافة تحديداً لتلك المعارف وثمرات العلم، لذلك تسابق الناس على تحصيلها لتنمية قدراتهم العلمية المختلفة ووضعها في خدمة المجتمع العباسي وبلاط الخلافة العباسية، وكلاهما أسهم في المحصلة في بناء صرح الحضارة الإسلامية. فالجلي الواضح هو أن تنامي حاجة النخبة لهذه العلوم في سوق حرة صحية، شجعت على العطاء والإنتاج، وجعلت تحصيل العلم عملية اجتماعية غالبة تتفاعل في سياق التطور المجتمعي، فتنحى معها بالتدريج الدور الرسمي للخلافة العباسية، وحضر مجتمع المعرفة فواصل المشوار باستقلالية كاملة.

أما غياب ذكر (بيت الحكمة) تحديداً عن جهود الترجمة التي قام بها حنين بن إسحاق، فإن هذا الغياب قد لَفَت نظر الدارسين، بحكم الصورة الشائعة حديثاً لـ(بيت الحكمة)، وتقديمها بوصفها مؤسسة علمية وأكاديمية كبرى، تبنت برامج الترجمة وتطوير العلوم. وأبرز من حلَّل ودرس واستخلص موضوع (بيت الحكمة)، هو غوتاس في كتابه السالف الذكر. فقد أفرد باباً نذره لمناقشة علاقة (بيت الحكمة) بحركة الترجمة، وجعل له عنواناً هو "حركة الترجمة وموضوع بيت الحكمة". وفي هذا الباب تتبع غوتاس ذكر (بيت الحكمة) في المصادر التاريخية التقليدية وذات الصلة بتاريخ العلم، وخَلص إلى أن المعلومات المتوافرة عن بيت الحكمة ضئيلة للغاية، وأن هذا الواقع في حد ذاته دليل على أن (بيت الحكمة) لم تكن شيئاً فخماً ولا مهماً[33] كما تصور في المراجع الحديثة[34]. ومن خلال متابعاته المفصلة ومنهجه العلمي في الاستقصاء والتحليل، وصل إلى خلاصات مقنعة، وهي أن (بيت الحكمة) لم تكن مؤسسة أكاديمية، ولا قاعة درس أو مؤتمرات، وإنما كانت خزانة كتب متواضعة، وأنها جزء من ديوان الدولة، ورثه العباسيون عن الساسانيين الذين أسسوها ابتداء – في أزمنتهم– كمكتبة ملكية لحفظ أخبار حروبهم والأشعار الممجدة لهم. ثم أضاف إليها العباسيون واجبات الترجمة التي ابتدأها المنصور وفق رؤية أيديولوجية، كما أسلفنا، فكانت مكان ترجمة للكتب الفارسية غالباً والهندية أحياناً. كما أن المصادر لا تتوقف كثيراً عند بيت الحكمة، وأن ذكرها لها أحياناً لا تتعدى التعريف السريع "بصاحب بيت الحكمة"، أو الإشارة إلى كتاب فارسي وجد هناك. ثم هناك ذكر يتيم لشخص عرف بأنه كان منقطعاً في بيت الحكمة ينسخ للرشيد والبرامكة.

والنتيجة الأكثر إدهاشاً التي خرج بها غوتاس، مستعيناً برسالة حنين أيضاً، هي أن (بيت الحكمة) لم تكن لها علاقة البتة بترجمات جالينوس بل أيضاً بالتراث الإغريقي كله، وأنها كانت خالية من أية مخطوطات إغريقية، وإلا لكان حنين أولى بذكر ذلك وهي تحت أنفه، وقد سرد قصص البحث عن كِتاب أو مَقالات منه، ولاسيما أنه قد قيل إن حنيناً عين رئيساً لها أيام المتوكل[35] .

وكان شترومايير، المستشرق الألماني، قد أسس على غياب ذكر (بيت الحكمة) افتراضاً مفاده، إمَّا أن (بيت الحكمة) كانت للخاصة من العلماء ولم يكن حنين منهم، أو أنها كانت قد أُغلقت[36]. ومع وجاهة الاستغراب الناشئ عن عدم ذكر (بيت الحكمة) أو أي من الخلفاء، فإن الافتراض الذي خلص إليه بشأن مكانة حنين مخالف للواقع؛ فحنين كان من الخاصة دائماً بحكم علاقته بخلفاء عصره وأكابر رجاله، ومنهم الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، الذي ذكره حنين مرتين في رسالته هذه، مرة بوصفه طالب ترجمة لكتاب، ومرة بوصفه صديقاً لحنين. فقد ذكر حنين أنه كان مشغولاً بصحبة ابن الزيات[37] الذي قتله المتوكل بعدئذ لأسباب سياسية. وهي صحبة لابد أن يكون مسوغها ودافعها علمياً بحتاً؛ لكثرة ما ترجم لابن الزيات من كتب[38]، لكنها صحبة لا تشفع لغياب ذكر مؤسسات الدولة العباسية أو خلفائها، بل تشهد على الهمة الشخصية للأفراد في رعاية العلم ومتابعته؛ لأنه (العلم) غدا حاجة ضرورية في المجتمع، ومدخلاً وجيهاً للقرب من الخلافة وللثراء من ثم.

غير أن فكرة كون بيت الحكمة قد فقدت دورها بسبب المنازعات والحروب وانتقال العاصمة، جائز في ضوء وظيفتها المتواضعة التي استخلصها غوتاس من المصادر، وأنها ليست مؤسسة علمية كبرى كما تصور الكتابات الحديثة.

ولا دليل مقنعاً في المصادر يمكن أن يعتد به على أن المتوكل عين حنيناً رئيساً لبيت الحكمة، فالحال التي كانت عليها في الواقع، كما تظهر المصادر، أقل بكثير من همة حنين ونشاطه في الترجمة والتأليف، وأنه لا وقت لديه لمشاغل أخرى، ولاسيما أنه لم يذكر صلته الرسمية ببيت الحكمة قط في أي من كتبه.

وصفوة القول إن فئات المجتمع المختلفة تولت – ضمن منطق الحاجة أو قاعدة العرض والطلب – البحث عن كتب الأقدمين لترجمتها، بتكليف من المشتغلين بشؤون الطب وباقي

فنون العلم، خضوعاً لمنطق السوق، كما ذكرنا. منطق السوق، أو العرض والطلب، هو الذي أرخى بشروطه على النشاط المعرفي لهذه الفترة، فتطور واتسع ونشأت عنه صلات بين شعوب وثقافات.

وبناء على كل ما سبق، يبدو انعدام ذكر بيت الحكمة، أو أي من الخلفاء في رسالة حنين منطقياً ومتسقاً مع تطور المجتمع ومع واقع بيت الحكمة الفعلي، وهو ما ينهض دليلاً على فوائد استقلالية العمل العلمي وخروجه عن طاعة الحاجة الرسمية التي ظهرت أيام المنصور والمأمون إلى رحاب المجتمع بتفاعلاته المختلفة. وهو استقلال ضمن، في هذه الفترة، استمرار الجهد الاجتماعي بعيداً عن عواصف السياسة والحروب وويلاتها فأينع وأثمر.

وتبقى الخلافة العباسية صاحبة الفضل في فتح آفاق هذه المعارف، ليس فقط من خلال البدء بتشجيع الترجمات وطلب معارف التنجيم والطب والهندسة في عهد المنصور تحديداً، بل من خلال تنمية المدن أيضاً، ومنها بغداد، وهي (الخلافة) التي خلقت الطلب على تلك المعارف بتقديم نفسها سوقاً مستهلكة لها ومربحة، إلى جانب السوق الاجتماعية العامة التي تطورت بتطور المدن.

5 - العلاقة بين مدرسة الإسكندرية ومدرسة بغداد

في سياق التعريف بالكتاب المترجم، يذكر حنين في رسالته صلة الكتاب قيد التعريف بمنهج تعلم الطب، وإن كان من الكتب العامة أو الخاصة، أو إن كان يقرأ أولاً أو تالياً، وذلك إما بحسب الترتيب الذي أثبته جالينوس لقراءة كتبه في مقالة أعدها لهذا الغرض[39]، وإما بحسب الترتيب الذي سارت عليه مدرسة الإسكندرية قديماً. والكلام هنا موجه بالطبع للمهتمين بتعلم الطب في القرن الثالث الهجري، وأهمية هذا الذكر تكمن في أن حنين بن إسحاق وضع أمام دارسي الطب في بغداد وسواها، ليس فقط كتباً طبية كثيرة، بل أيضاً نظام قراءة هذه الكتب ومنهج التَّعَلُّم.

وقد رتب حنين قائمة الترجمات هذه؛ بحيث تشتمل أيضاً على مراتب قراءة الكتب الطبية، وكيفية التدرج فيها، فنراه يضع ما ينبغي أن يقرأ أولاً في البداية. فما بين الكتاب

3 والكتاب 20، نقف على نظام قراءة كتب جالينوس كما سارت عليه الأمور في مدرسة الإسكندرية، (منهج الإسكندرية)، وفيه تداخل بين نظام جالينوس الأصل وما أقرته مدرسة الإسكندرية لنفسها.

ثم ابتداء من الرقم 21، أخذ يعرض الكتب وفق ترتيب جالينوس لقراءتها. وقد ذكر ذلك صراحة في عرضه لكتاب (19/20) كما سيأتي. ويبقى السؤال مطروحاً عن صلة حنين بن إسحاق بنظام القراءة هذا، أأشار إليه كما وجده مثبتاً في الكتب أم زاد على ذلك رؤيته الخاصة في كيفيات القراءة وفق معرفته هو بكتب جالينوس وموضوعاتها؟ نترك الإجابة عن هذا السؤال إلى أن نفرغ من استعراض الأفكار المتعلقة بنظام القراءة كما ترد في الرسالة في سياق عرض بعض الكتب المترجمة.

ولنبدأ بالكتاب (3/4) بعنوان "في الفِرَق" يقول حنين: **"هذا الكتاب مقالة واحدة كتبها (جالينوس) إلى المتعلمين، وغرضه فيها أن يصف ما يقوله كل صنف من الفرق الثلاث المختلفة في الجنس، في تثبيت ما يدعي، والاحتجاج له والرد على من خالفه. وأنا استثنيت فقلت المختلفة في الجنس؛ لأن في كل واحد من هذه الثلاث فرق فرقاً أُخَرَ أيضاً مختلفة في النوع يعرف مقالات أصحابها الداخلُ في الطب بآخره، بعد أن تمعن فيه. فتعلم ما خَطْبُ كل صنف منها وكيف الوجه في الحكم على الحق والباطل منها"** .

وحول كتاب (4/5) بعنوان "في الصناعة الطبية" يقول: **هذا الكتاب أيضاً مقالة، ولم يعنونه جالينوس إلى المتعلمين؛ لأن المنفعة في قراءته ليست تخص المتعلمين دون المستكملين. وذلك أن غرض جالينوس فيه أن يصف جميع جُمَل الطب بقول وجيز: وذلك نافع للمتعلمين وللمستكملين. أما المتعلم فكيما يسبق فيتصور في وهمه جملة الطب كله على طريق الرسم، ثم يعود بعد ذلك في جزء جزء منه، فيتعلم شرحه وتلخيصه والبراهين عليه من الكتب التي بالغ فيها في الشرح. وأما المستكمل، فكيما يقوم له مقام التذكرة لجملة ما قد قرأه وعرفه بالكلام الطويل، وأما المُعَلِّمون الذين كانوا يُعلِّمون في القديم الطب بالإسكندرية، فنظموا هذا الكتاب بعد كتاب الفرق ثم من بعده "في النبض إلى المتعلمين" ومن بعده المقالتان "في مداواة الأمراض إلى أغلوقن"، وجعلوها كأنها كتاب واحد ذو خمس مقالات وعنونوها عنواناً واحداً عاماً "إلى المتعلمين"** .

وفي عرضه لكتاب (6/6) "إلى أغلوقن"، يؤكد أن جالينوس كتب مقالتين في هذا الكتاب وعنونه: **"في مداوة الأمراض إلى أغلوقن" ولم يعنونها إلى المتعلمين، لكن أهل الإسكندرية أدخلوهما، كما قلت قبل قليل في عداد الكتب إلى المتعلمين"**. ويضيف، إن زمن تأليف هذا الكتاب هو زمن تأليف كتاب "الفرق".

وفي عرض كتاب (7/7) "العظام" ، يذكر حنين أن جالينوس عنون كتابه هذا هكذا: **"في العظام للمتعلمين، ولم يعنونه إلى المتعلمين؛ لأن بين قوله عنده إلى المتعلمين وبين قوله للمتعلمين فرقاً؛ وذلك أنه إذا عنون كتابه إلى المتعلمين دل على أنه ينحو في تعليمه ما يعلم نحو قوة المتعلمين وأن له تعليماً من وراء هذا التعليم في ذلك الفن للمستكملين، وإذا عنون كتابه للمتعلمين دل ذلك على أن كتابه ذاك يحيط بجميع العلم بذلك الفن، إلا أن تعليمه إنما هو للمتعلمين، وذلك أن جالينوس يريد أن يقدم المتعلم للطب تَعَلُّم علم التشريح على جميع فنون الطب؛ لأنه لا يمكن عنده دون معرفة التشريح أن يتعلم شيئاً من الطب القياسي"**. ويضيف حنين أن جالينوس وضع هذا الكتاب في وقت وضعه سائر الكتب إلى المتعلمين. وهذا معناه أن جالينوس قد قصد وضع كتب دراسية بخلفية منهجية مقصودة للأخذ بأيدي المتعلمين خطوة خطوة.

وفي عرضه لكتاب (8/8) "في العَضَل"، يذكر أن هذا الكتاب مقالة واحدة، وأن جالينوس لم يعنونه إلى المتعلمين، لكن أهل الإسكندرية أدخلوه في عداد كتبه إلى المتعلمين؛ وذلك أنهم جمعوا إلى هاتين المقالتين ثلاث مقالات أُخَرَ كتبها جالينوس إلى المتعلمين، واحدة في تشريح العصب، وواحدة في تشريح العروق غير الضوارب، وواحدة في تشريح العروق الضوارب، وجعلوه كأنه كتاب واحد ذو خمس مقالات وعنونوه "في التشريح إلى المتعلمين". كما تصرف أهل الإسكندرية بكتاب آخر لجالينوس (9/10) عنوانه "في العروق" وهو مقالة واحدة كتبها جالينوس للمتعلمين يوضح فيها العروق التي تنبض والعروق التي لا تنبض، لكن "أهل الإسكندرية قسَّموه إلى مقالتين، مقالة في العروق غير الضوارب ومقالة في العروق الضوارب".

وفي عرضه لكتاب (11/14) "في العلل والأمراض" يذكر حنين: **"إن هذا الكتاب ست مقالات مجموعة، وهي من المقالات التي يُحتاج إلى قراءتها ضرورة قبل كتاب "حيلة**

البرء"، ولم يجعلها جالينوس في كتاب واحد ولا عنونها بعنوان واحد، ولكن أهل الإسكندرية جمعوها وعنونوها بعنوان واحد هو "كتاب العلل"، كأنهم ذهبوا إلى أن وسموا الكتاب بأكثر ما فيه. وأما السريانيون فعنونوا هذا الكتاب بعنوان أبعد وأنقص من الواجب فوسموه بكتاب "العلل والأعراض"، ولو كانوا قصدوا للعنوان التام، لقد كان ينبغي أن يذكروا مع الأسباب والأعراض الأمراض أيضاً".

وعند عرضه لكتاب (14/16) "النبض" وأجزائه ومقالات أجزائه، يذكر حنين حاجة المتعلم إلى قراءة المقالة الأولى من الجزء الأول حاجة ضرورية، وليس الأمر كذلك في المقالات الثلاث الباقية من الجزء الأول؛ إذ يمكنه الاقتصار على قراءة المقالة الأولى، وهو ما قاله جالينوس نفسه. كما يذكر أن أهل الإسكندرية – بناء على ما تقدم من جالينوس – اقتصروا على قراءة المقالة الأولى من كل جزء.

وفي عرضه لكتاب (18،19/20) "حيلة البرء"، يذكر حنين عدد المقالات الأربع عشرة ومحتوياتها بإيجاز، وأنها مفرقة، وأن نُسَخ هذا الكتاب باليونانية قليلة: **"وذلك أنه لم يكن مما يقرأ في كُتَّاب الإسكندرية"**. ثم ذكر من ترجم تلك الأجزاء.

وفي نهاية العرض يقول حنين جامعاً ما تقدم من ذكر لكتب التعلم: **"فهذه الكتب التي كان يقتصر على قراءتها في موضع تعلم الطب بالإسكندرية، وكانوا يقرؤونها على هذا الترتيب الذي أجريت ذكرها عليه. وكانوا يجتمعون في كل يوم على قراءة إمام منها وتفهمه كما يجتمع أصحابنا اليوم من النصارى في مواضع التعليم التي تعرف بالأسكول في كل يوم على كتاب إمام، إمَّا من كتب المتقدمين وإمَّا من سائر الكتب. وإنما كانوا يقرؤونها الأفراد كل واحد على حدته بعد الارتياض بتلك الكتب التي ذكرتُ كما يقرأ أصحابنا اليوم تفاسير كتب المتقدمين. وأمَّا جالينوس فلم ير أن تقرأ كتبه على هذا النظام لكنه تقدم في أن يُقْرأ من كتبه بعد كتابه في الفرق كتبه في التشريح، ولذلك أنا مُفْتَتِح من ذكر كتبه بتعديد كتبه في التشريح، ثم مُتْبِعُها بسائر كتبه على الولاء وعلى النظام والترتيب الذي وضعه هو".**

تلك هي المعلومات التي أوردها حنين عن نظام تعلم الطب في سياق عرضه لما ترجم من كتب جالينوس. وقد أظهر حنين حساً تربوياً عالياً، وفهماً لمقاصد جالينوس

المتعلقة بمراتب قراءة كتبه، واطلاعاً على أحوال مدرسة الإسكندرية، وصلتهم بمؤلفات جالينوس وعملهم المختصرات والجوامع لها. والجوهر المستخلص من السياق هو أن حنيناً أخلص لمراتب قراءة كتب جالينوس كما رتبها جالينوس بنفسه، وأظهر قدراً من النقد لما صنعه أهل الإسكندرية في مراتب قراءة كتب جالينوس، لاسيما في عرض الكتاب الأخير (19،18/20).

لا يظهر حنين هنا مصوباً شيئاً ما أو مقترحاً نظام قراءة جديد، لكنه أعرب صراحة عن ولائه لنظام جالينوس في القراءة، لدرجة أن يسير في عرض ما ترجم من كتب وفق النظام والترتيب الذي وضعه جالينوس لقراءة كتبه. وأول الكتب التي عرضها ويتوجب لقراءتها ابتداء هي "كتاب التشريح"، وهو الكتاب رقم 21، يليه ما تجب قراءته بعدئذ، بحسب نظام جالينوس في ترتيب القراءات، لكنه لم يقل إن كان هذا الترتيب يشمل بقية العناوين حتى نهاية العرض.

إخلاص حنين هذا لعبقرية جالينوس يظهر أيضاً في علاقته بموضوعات أخرى من موضوعات الفكر اليوناني[40]. وفي سياق هذا الإخلاص لعبقرية جالينوس، تجلَّت قدرة حنين اللغوية باليونانية والعربية من خلال شرح الفرق بين صياغتين هما "إلى المتعلّمين" و"للمتعلِّمين"، والفئة الأخيرة هم المبتدئون عامة، أما حيث يكون العنوان "إلى المتعلمين"؛ فيعني بهم "المستكملين" أي الذين قطعوا شوطاً في الدراسة الطبية، ويكملون ما بدؤوه.

أما عن صلة مدرسة الإسكندرية بمدرسة بغداد، ودور حنين بن إسحاق فيها، فالمرجع في هذا الباب مقالة مايرهوف القيمة بعنوان "من الإسكندرية إلى بغداد: بحث في تاريخ التعليم الفلسفي والطبي عند العرب"[41]. وفي هذه المقالة تتبع مايرهوف بدأب لافت مراكز العلم القديمة ومؤسساته ورجاله وكتبه وملخصاته وجوامعه، وكيفيات انتقاله إلى الشرق الأدنى ثم إلى جنديسابور، ومنها إلى بغداد ودور مترجمي السريان أولاً ثم حنين ومدرسته ثانياً. ومن الخلاصات التي انتهى إليها مايرهوف هي أن الدراسة في الشرق والغرب ظلت تجري على نمط مدرسة الإسكندرية طوال العصور الوسطى، وهي الطريقة التي أشار إليها

حنين بوضوح كما مر معنا في عرضه لكتاب (19،18/20). وتتألف من قراءة كتب أساسية، على جميع متعلمي الطب تعلمها في الأسكول من خلال الاجتماع والتدارس.[42] ثم قراءة سائر الكتب بحرية بعد ذلك كما يقرأ أصحابه أيضاً تفاسير الأقدمين.

وقد اقتصر حنين هنا على وصف طرق التعلم لكتب الطب وتفاسير الأقدمين على أصحابه من النصارى. ولم يشر إلى طرق التعلم القائمة عند المسلمين، مع أنه في القرن الثالث الهجري، وقد تطورت كثيراً من العلوم النقلية. فهل يعني قَصْر ذكر تعلم الطب على النصارى فقط عزوف المسلمين حتى زمن حنين عن تعلم الطب؟ والجواب قطعاً (نعم)، لو قصرنا الجواب على بغداد، لكن مدارس طبية أخرى وجدت في شرق العالم الإسلامي، برزت منها بعدئذ شخصية طبية إسلامية عملاقة هي محمد بن زكريا الرازي، الذي عاش بين منتصف القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع الميلادي (250- 310هـ/ 865- 925م). وتتابع بعده الأطباء المسلمون باستيعابهم للتراث اليوناني وإضافاتهم عليه[43] .

• خلاصات

بعد استعراض أهم محتويات الرسالة من خلال المحاور المقترحة، يمكن إثبات الخلاصات الآتية:

1 - الرسالة تبين بدايات الترجمة إلى السريانية (منتصف القرن السادس الميلادي من قبل سرجس الرأس عيني)، وإلى العربية (بواسطة اصطفن بن بسيل، مطلع القرن التاسع الهجري)، وتبين علاقة حنين بالسابق واللاحق من الترجمات، وفيها أحكام حنين على ترجماته الأولى وترجمات غيره، وإعادة الترجمات لمعظم ما ترجم سابقاً طلباً لنص أوضح وأفصح.

2 - الرسالة تبين منهجية حنين بن إسحاق العلمية في التعامل مع المخطوطات والنصوص للحصول على نسخ مكتملة مستقيمة، وإعـادة ترجمتها وهو ما يكشف الروح العلمية لزمانه، وأسبقيته في مضمار مناهج التحقيق المعاصرة التي لا تختلف عما كان يصنعه حنين للحصول على نص سليم أولاً، من خلال مقابلة نسخ مختلفة واستخراج نص سليم لترجمته.

3 - الرسالة تبين معرفة حنين بن إسحاق العميقة للتراث اليوناني لدرجة مكنته من الحكم على الأصيل والمزيف من تراث جالينوس وأبقراط.

4 - الرسالة تبين أيضاً قدم فكرة وضع الفهارس للتعريف بالكتب زمن جالينوس، ثم عبقرية حنين في إثبات أكثر من 129 كتاباً مترجمة بعناوينها ومقالاتها ومحتويات كل مقالة منها وصلة الكتاب بنظام تعلم الطب من الذاكرة بعد ضياع كتبه.

5 - الرسالة تبين العلاقة بين الكتب العامة والكتب التعليمية زمن جالينوس، كما تبين صلة مدرسة الإسكندرية بمدرسة الطب في بغداد، وموقف حنين الناقد لمنهاج مدرسة الإسكندرية لصالح نظام جالينوس.

6 - تعين الرسالة على تقييم دور حنين وتلامذته في إرساء قواعد الطب العربي الإغريقي الذي ساد في القرون الوسطى، وأثره على طب أوروبا في العصور الوسطى من خلال ترجمة التراث الطبي الإغريقي أولاً وإسهامات الأطباء المسلمين ثانياً.

7 - الرسالة تذكر المترجمين الأوائل والمعاصرين، كما تذكر الشخصيات العلمية التي طلبت تلك الترجمات ودفعت أثمانها، وتمكن من معرفة مجتمع المعرفة حينئذ وإسهاماته الكبيرة في نقل التراث الإغريقي إلى السريانية والعربية، وصلة كل من المسيحيين العرب السريان والمسلمين بعدئذ بالثقافة اليونانية والطب تحديداً.

8 - تظهر الرسالة غياب الخلافة العباسية وبيت الحكمة عن كل الترجمات التي أنجزها حنين في هذه الرسالة، وهو ما يساعد على تصويب معلوماتنا عن دور الخلفاء العباسيين في فترة حنين على الأقل، كما يساعد على إعادة تقييم دور بيت الحكمة الذي اختفى بحكم تواضع مهام بيت الحكمة أصلاً.

9 - الرسالة تبين بالتفصيل ما ترجم إلى السريانية، ثم إلى العربية، وتعين من ثم على مناقشة سؤال العلاقة بين السريانية والعربية في هذه الفترة، وتؤرخ لبدء تواري السريانية بالتدريج، أمام زحف العربية لغةً للعلم والإدارة والدين.

10 - الرسالة تبين طبيعة الجدل العلمي عند اليونان حول قضايا طبية، ولاسيما بين جالينوس وأبقراط، وتمكن لمن أراد متابعة هذه الخلافات في العقل العربي الإسلامي بعدئذ.

الهوامش والمراجع

(1) أبو الحسن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم نديم المتوكل، وهو من خاصة ندمائه ومتقدميهم عنده، وكان قريباً له ولمن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد. اشتهر بروايته للأشعار والأخبار وكان شاعراً محسناً أيضاً .. مقدماً عند الخلفاء يجلس بين يدي أسرتهم ويقصون إليه بأسرارهم ويأمنونه على أخبارهم، توفي سنة خمس وسبعين ومائتين . (ابن النديم: **الفهرست**، بيروت: دار المعرفة (دون تاريخ) ص 205). كما أن له ذكراً متفرقاً عند ابن النديم متعلقاً بشراء كتب أو بترجمات عملت له من حنين بن إسحاق وثابت بن قرة. للتمثيل على اهتمامه بالكتب والترجمة ، وأنه كان يكلف المترجمين للترجمة له، وجاء في مطلع كتاب الهندسة لأرخميدس: كتاب في الأصول الهندسية لأرشميدس، نقله من اليونانية إلى اللغة العربية لأبي الحسن علي بن يحيى مولى أمير المؤمنين ثابت بن قرة المتوفى سنة ثمان وثمانين ومائتين من الهجرة. انظر ، ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب الوراق: **الفهرست**، تحقيق: رضا تجدد، ج1 ، طهران: حقوق الطبع محفوظة للمحقق،1971، ص 160.

(2) بيرجشتريسر (1886-1933) ، لُغوي ألماني متخصص في الساميات، ويعد أحد أبرز مستشرقي القرن العشرين، عمل أستاذاً في جامعة لايبتزج وميونيخ الألمانيتين، كما عمل أستاذاً في جامعة القسطنطينية بتركيا في أثناء الحرب العالمية الأولى. درس بيرجشتريسر اللهجات المحكية العربية والسريانية في سوريا وفلسطين إلى جانب معرفته الممتازة بالعربية والعبرية. أنجز دراسات عدة في مجال اللغات، من أبرزها "**المدخل إلى اللغات السامية**" عام 1928، وهو الكتاب الذي ضمن له شهرة كعالم متميز. وفيما يتعلق بالدراسات الإسلامية فقد انصب اهتمامه بشكل كبير على دراسة "**تاريخ النص**"، أي نشأة النص وتحولاته اللغوية والدلالية على أساس المنهج الفيلولوجي (فقه اللغة)، وظهر ذلك في كتابه "**تاريخ النص القرآني**"، وفي دراسته لكتاب ابن جني "المحتسب في وجوه القراءات الشاذة للقرآن" وله أيضاً كتاب "**في معالم الفقه الإسلامي**" .

أما ما يخص حنين بن إسحاق فقد كتب بيرجشتريسر ثلاثة كتب، الأول بعنوان "حنين بن إسحاق ومدرسته" Hunain ibn Ishaq und seine Schule صدر عام 1913، وبعنوان فرعي هو "أبحاث في اللغة وتاريخ التدوين حول الترجمات العربية لأبقراط وجالينوس، وكتاب "حنين بن إسحاق: حول ترجمة كتب جالينوس إلى السريانية والعربية" Hunain Ibn Ishaq: Über die Syrischen und Arabischen Galen-übersetzungen صدر عام 1925، وكتاب "مصادر جديدة حول ترجمات حنين بن إسحاق لكتب جالينوس" Neue Materialien zu Hunain Ibn Ishaq's Galen-Bibliographie صدر عام 1932. للحصول على سيرة موجزة كافية، انظر النعي الذي كتبه مايرهوف في مجلة Isis

Meyerhof Max: Bergsträßer (1886-1933), Isis, vol.25.No 1, Chicago, university of Chicago,1936, pp 60-62.

(3) - Bergsträßer, Gotthelf: **Hunain Ibn Ishaq: Über die syrischen und Arabischen Galen-Übersetzungen**, xv11 Band No 2. Leibzig: Herausgegeben von der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, 1925.

(4) - Mayerhof, Max: "New light on Hunain Ibn Ishaq and His Period", **Isis**, vol 8 , No 4, Chicago, university of Chicago, 1926, PP 685-742.

(5) - Strohmaier, Gotthard :Hellas im Islam: **Interdisziplinäre Studien zur Iknographie, Wissenschaft und Religionsgeschichte. Wiesbaden**: Harrassowitz Verlag, 2003, pp 85-106, pp 180-185.

(6) للوقوف على المقدمات الكبرى لعصر الترجمة، وهي، إيجازاً، فتوحات الأمويين التي أزالت الحواجز والحدود بين الشرق والغرب ، ثم الثورة العباسية واعتماد سياسات الانفتاح الفكري والديني والتمهيد لسيادة اللغة العربية بحكم الدين والإدارة (العربيين)، لغة لشعوب الخلافة الإسلامية، انظر :

Gutas, Dimitri, (1998): **Greek Thought, Arabic Culture: The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early 'Abbasid Society (2nd-4th/8th-10th centuries)**, London and New York: Routledge, 1998,pp 1-16. وانظر أيضا

Al-Hasan Ahmed Y.: "The Age of Translation and the Beginning of the Scientific Renaissance", in: **The Different Aspects of Islamic Culture**, volume 4, Editor: Ahmed Y. Al-Hasan, co-Editors, Maqbul Ahmed and Ahmed Iskander, Unesco publishing,2003, Pp87-93.

(7) - Hunain Ibn Ishaq, p v11.

(8) مؤلفو: **موسوعة تاريخ العلوم العربية**، إشراف: رشدي راشد، ج1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997، ص 18. ويعد الدكتور رشدي راشد، أحد أبرز فلاسفة العلم، ومؤرخيه المعاصرين، وهو ناقد أكاديمي لتاريخ العلم العربي، قدم العديد من المساهمات المهمة لتاريخ الرياضيات والعلم، وأشرف على إصدارات مهمة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، منها هذا الكتاب، ويشغل حالياً منصب المدير الشرفي لقسم أبحاث المستوى الرفيع في المركز الوطني للبحوث العلمية بفرنسا. ولد بمصر عام 1936، ويقيم في باريس بعد حصوله على الجنسية الفرنسية، ويستدعى لإلقاء محاضرات علمية في عديد من المحافل الدولية.

(9) - Hunain Ibn Ishaq, pp 1v – v11.

(10) - Hunain Ibn Ishaq, p v11.

(11) - Hunain Ibn Ishaq, p52.

(12) - Bergsräßer (1925), p –v11 - x

(13) - Bergsräßer, Gotthalf: **Neue Materialien zu Hunain Ibn Ishaq's Galen-Bibliographie**, Herausgegeben von der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, xv11 Band No 2, 1932.

(14) ريتر مستشرق ألماني ، اهتم أيضاً بمسارات الأفكار وتاريخ العلم، وله كتاب بالاشتراك مع زميل له هو ريتشارد فالتسر بعنوان " الترجمات العربية للأطباء اليونان في مكتبات إسطنبول".

(15) - Neue Materialien zu Hunain Ibn Ishaq's Galen-Bibliographie, PP 7 -13 .

(16) - Neue Materialien zu Hunain Ibn Ishaq's Galen-Bibliographie, PP 12 -13 .

(17) - Hunain ibn Ishaq, p 1.

(18) يورد ابن أبي أصيبعة نقلاً عن حنين نفسه، ما تعرض له من محنة أيام المتوكل واتهامه بتحقير الأيقونات المقدسة ووضعه في السجن، ولعل هذه الحادثة التي أوقعه فيها خصومه وحساده هي التي فقد فيه كتبه أيضاً من خلال مصادرتها. انظر: ابن أبي أصيبعة : **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ج2، بيروت، دارمكتبة الحياة، (د.ت)، ص 153– 158.

(19) - Hunain Ibn Ishaq, p2.

(20) الصابئة هو الاسم المشهور لدين قديم يعبد أتباعه ظواهر الطبيعة، وعلى رأسها الكواكب والنجوم، وتقوم الفكرة الأصل على اعتقاد بتعدد القوى المدبرة لهذا الكون وبوجود قوة أعلى تهيمن على هذه القوى وتديرها. انظر ، الحسني، عبد الرزاق: **الصابئة قديماً وحديثاً**، مصر، طبع مكتبة الخانجي، 1931، ص 8–9. ويمكن للمستزيد تتبع تطور دين الصابئة وفرقها المختلفة، وصابئة حران تحديداً في هذا الكتاب ص 22–25.

(21) نلفت الانتباه إلى أن عدد العناوين التي وردت في هذه الرسالة بلغت 129 عنواناً، ولم ترقم هذه العناوين من 1-129 في النص العربي، لكنها رقمت في النص الألماني المترجم، ونحن هنا سنشير إلى أرقام تلك العناوين متبوعة بالصفحة وبينهما الشرطة المائلة بين قوسين في المتن، وذلك لتجنب تكرار الحواشي المتماثلة في الهامش، وفي حال وجود رقمين متتابعين وصفحتين سنفصل بين أرقام العناوين بفاصلة ... وبين الصفحات أيضاً وبينهما الشرطة المائلة هكذا مثلاً. (1، 2/ 3،4).

(22) - New light on Hunain Ibn Ishaq and his Period, p 724.

(23) - Hellas Im Islam, p 97.

(24) أورد صاحب الزيادات بعد نص حنين مباشرة، ووضعت هذه الزيادة بين قوسين، أن حنيناً ترجم فص هذا الكتاب إلا قليلاً منه إلى العربية في خلافة المعتز.

(25) - **Greek Thought, Arabic Culture: The Gräco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early <Abbasid Society (2nd-4th/8th-10th centuries**).

(26) - Greek Thought, pp 28-52.

(27) موسوعة تاريخ العلوم العربية، ص 18.

(28) - New light on Hunain Ibn Ishaq and his Period, p 713.

(29) "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، ص 176.

(30) ابن النديم: **الفهرست**، بيروت: دار المعرفة، 1978، ص163 .

(31) - Hunain Ibn Ishaq, p 18.

(32) انظر هامش 20، 21.

(33) - Greek Thought, p 54.

(34) يمكننا الآن ببساطة تتبع ورود ذكر بيت الحكمة في المصادر التقليدية إلكترونياً، ومن المذهل حقاً ألا نجد لها ذكراً يؤيد الصورة المبثوثة عن بيت الحكمة في المراجع الحديثة، بل العكس هو الصحيح، وهو ما ذهب إليه غوتاس.

(35) - Greek Thought, pp 53-60.

(36) - Hellas Im Islam, p 97.

(37) - Hunain Ibn Ishaq,p 49.

(38) "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، ص 176.

(39) - Hunain ibn Ishaq, p 2.

(40) - M.Meyerhof & C. Prüfer: "Die Augenanatomie des Hunain Ibn Ishaq. Nach einem illustrierten arabischenen Manuskript". Archiev für Geschichte der Medizin, Bn 1V, September ,Heft 3,1910, **Islamic Medicine**, volume 23, Hunain Ibn Ishaq (d.260 /873) Texts and studies, 1910. Collected and reprinted by Fuat Sezgin, 1996. Institute for the History of Arabic-Islamic Science at the Johann Wolfgang Goethe University Frankfurt am Main. pp 163-190.

(41) مايرهوف، ماكس: "من الإسكندرية إلى بغداد"، **التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية**، لعبد الرحمن بدوي، ط4، بيروت: دار القلم، 1980 .ص 37-100، ص52 .

(42) لمعرفة منهج الإسكندرية بدقة كبيرة، يمكن الاطلاع على مقالة :

- Iskander, Albert Z: "A Note on the Late Alexandrian Medical Curriculum", **The Different Aspects of Islamic Culture**, volume 4, Editor: A. Y. Al-Hasan, co-Editors, Maqbul Ahmed and A.z. Iskander, Unesco publishing.2001, Pp 51- 54.

في هذه المقالة استعان الكاتب بآراء حنين بن إسحاق وعلي بن رضوان المصري، وقسم الدراسة الطبية إلى مستويات سبعة، ووضع لكل مستوى الكتب التي كانت تقرأ فيه.

(43) لمعرفة المؤسسات التعليمية الطبية في الإسلام، انظر مثلاً: السعيد، عبد الله عبد الرزاق، الإسلام ومؤسساته التعليمية والطبية، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان.